العرب
السبت 2019/11/16
السنة 42 العدد 11530

فن الشارع يرسم ملامح ثورة التحرير العراقية

غرافيتي شبابي يوثّق ملحمة الصمود ويعيد للوطن المخطوف بهاءه

«التُك تُك» تحولت من وسيلة نقل إلى رمز الثورة

صور الشهداء الشباب تذكير تحريضي ضد السلطة

إعلام جماهيري حر مُوجه إلى الشعب مباشرة

فن الشارع، فن الغرافيتي لا يظهر إلاّ في مناسبات محددة الغاية والهدف كالتظاهرات والاحتجاجات والثورات التي تقودها الشعوب ضد سلطاتها. ومثل هذا الفن وليد لحظته. لا يعير الشروط الفنية أهمية كبيرة. فهو نتاج مباشر لحركة الثورات من دون خيال كبير.

وارد بدر السالم
روائي عراقي

في مثل الظرف العراقي الحالي توطدت صلة فن الشارع بالثورة العراقية على نحو واضح. واكتسب جماهيرية واسعة وهو يضع بعضا من مفردات الثورة الشبابية في نفق ساحة التحرير بطريقته العفوية.

التحق العشرات من هواة الرسم وطلبة أكاديمية الفنون الجميلة بجيل الثورة الشاب الذي هيمن على ساحة التحرير ونفقها الطويل وبرج المطعم التركي، في واحدة من ملامح التعاضد الاجتماعي والوطني والجمالي. وبعدما كان نفق ساحة التحرير مهملا لستة عشر عاما، أعاد هؤلاء الهواة والرسامون والرسامات الشباب الحياة له بصيغة جميلة وبارزة، عندما شغلوا كل مساحاته بالرسوم والشعارات بتعبيرية تلامس واقع الحال الثوري بمجمله، فازدهى بالحركة والألوان والصور والأصباغ التي أعادت له ملامح الجمال، واستعادت معه صورا كثيرة من صور البطولة الشبابية التي رآها العالم في ملحمة الصمود.

فعل جمالي

فن الشارع الغرافيكي ليس جديدا على الحالة العراقية، فهو نتاج اللحظة المباشرة برسم حر يراها العابرون من دون تخطيطات مسبقة، اجتهد فيه الرسامون كي يترجموا صور الصمود الطبيعي في مواجهة الغاز المسيل للدموع والقنابل الانفلاقية والصوتية.

وبقوا تحت وطأة هذا العصف اليومي لتحقيق فعل جمالي في نفق طويل يمرّ من تحت ساحة التحرير، كما لو أن الهوامش الصغيرة التحقت بالمتن الأكبر لثورة أكتوبر الشبابية في العراق، لتكون أيقونات لافتة في مسار الثورة الشبابية، باعتبار أن الفن لم يكن يوما ما هامشا أو هامشيا في حياة الشعوب؛ حتى البدائية منها؛ لكن مستويات هذه الثورة التنظيمية جعلت من الخطوط الخلفية لها مرسما حرا يمارس فيه الهواة والثوار على حد السواء التعبير المباشر والحر عن معطيات ثورة أكتوبر الناجحة حتى اليوم.

ولذلك كله، تزينت ساحة التحرير ونفقها الطويل برسوم وبوستارات فطرية وعفوية ألمحت إلى وحدة النسيج العراقي بتلقائية بسيطة؛ كاشفة هواجس الشارع العراقي وهو يتطلع إلى الحرية وإعادة الوطن المخطوف من قبل السلطة وميليشياتها التي تشكّل خطا منفلتا من خطوط الدولة الفاشلة.

ومثل هذه الرسوم البسيطة لا تعنيها الكثير من التفاصيل الصغيرة، ولا منظور الفن وشروطه المفهومة، لكنها تضع الفكرة مباشرة أمام المارة بتعبيرية مباشرة يغلب عليها الطابع التحريضي والوطني الذي يرى أن نجاح هذه الثورة منوط بالجميع، بلا حساسيات طائفية سابقة، تلك التي كرّسها السياسيون وعملوا عليها طيلة ستة عشر عاما، ليشقوا وحدة الشعب إلى كانتونات صغيرة وضعيفة.

الفطرة الفنية قادت الشباب إلى تزيين ساحة التحرير ومحيطها ونفقها برسمات كثيرة ولوحات تكاد تكون بدائية وبوستارات محرّضة غطّت أغلب المساحات في هذه الزوايا، بتركيزها على الجانب الثوري والإنساني والوطني والشعبي والروحي العام الذي انتظم الجميع تحت سلطته الثورية، ليكونوا بموازاة الحدث الكبير الذي تمكن من حفر جوهر الوطنية في نفوس الجميع.

وبالتالي جاءت هذه المساهمات البسيطة، كاشفة عن وعي جديد في المجتمع العراقي الذي انتفض من دون نداءات حزبية ولا سلطوية، ليقرّر الكثير من الإجراءات الحاسمة التي شهدناها والتي سنشهدها لاحقا.

من الهامش إلى المتن

من يتأمل مثل هذه الشطحات العابرة التي رسمها طلبة وهواة وعابرون، سيكتشف أن الهامش صعد إلى المتن وصار بموازاته ورديفه في العبور إلى ضفة الثورة وأنّه بمنزلة إعلام جماهيري حرّ ومُوجّه إلى الشعب؛ ولا شك أن محاور الرسوم والشعارات كلها انصبّت على الوطن كجامع روحي عام بمفرداته الكثيرة: الإنسان الباحث عن جمال الحياة والعدل الاجتماعي وقيمته الفردية، المرأة بتحديها السلطة حينما خرجت من البيت والجامعة إلى ساحة التحرير بموازاة الرجل، "التُك تُك" التي عرف العالم دورها العجيب في المواجهات والصدامات وأغراضها المتعددة في حالات الثورات الوطنية، والعلم العراقي الجامع الأكبر للعراقيين بلا طوائف ومذاهب.

> بعدما كان نفق ساحة التحرير مهملا لستة عشر عاما، أعاد الرسامون والرسامات الشباب الحياة له بصيغة جميلة وبارزة

وتتعدّد حالات الرسوم والبوستارات والكاريكاتير المنفعلة التي تستقدم صورا من ساحة التحرير ومن الحياة اليومية في ظل الاحتجاجات الثورية كالغازات المسيلة للدموع كفعل سلطوي قامع، والقنابل الصوتية المزعجة التي يلقيها الطرف الآخر كحالة هستيريا تصيبه، والكاريكاتير السياسي الذي يرافق هذه الرسوم ساخرا من السلطة ورموزها، والتاريخ العراقي القديم كحاضنة أسطورية لا مفر منها.

وأيضا صور الشهداء الشباب كتذكير تحريضي ضد السلطة، والمطالب المشروعة والحقوق الطبيعية للشعب التي جسدتها لوحات الطلبة والهواة، والتهكم على رموز السلطة وبعض الشخصيات البرلمانية الضالعة في الفساد ونداءات بوستارية تطالب بمقاطعة البضائع الإيرانية التي أغرقت السوق العراقية.

وهذا فعل اقتصادي يرى العراقيون أنه لا بد من التصدي له لأنه استنزف ثروات البلاد وعطّل إنتاجها الزراعي، والإشارات المستمرة إلى منهج الفساد الذي ساد في عصر الميليشيات بأسماء قيادييها المعروفين والإشارة إلى هذه المشكلة التي سرقت البلاد والعباد وأوصلت الدولة إلى حافات الإفلاس.

وعلى إيقاع هذه المفردات الواقعية التي تتكرّر في البوستارات واللوحات العفوية المرسومة على الهواء الطلق، تمضي الاحتجاجات مسجلة أروع بلاغة في التضامن الشعبي وتاركة بصمات شعبية مؤثرة، بلا طوائف، بلا مذاهب، بلا أحزاب إسلاموية كارثية أوصلت الحياة العراقية إلى الحضيض وحتى أبعد من ذلك.

المرأة العراقية تتحدى السلطة بالفعل والرسم

«نوّارات» تُشعل الذاكرة لتضيء شموعا مستقبلية

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

جرت العادة أن يستعين الصحافيون والنقّاد بأقوال مأثورة لتوضيح كتاباتهم أو لمدّها بمصداقية ما، لاسيما حينما تطرح أفكار غير تقليدية، لكن ما هو غير معتاد هو أن يطرح الكاتب فكرة ما داعما إياها بكتابات أخرى هي أيضا له.

هذا ما حدث لي تماما عند كتابتي لهذا المقال. اخترت أن أستعين من رواية "نوّارة" التي أصدرتها منذ ما يقل عن سنة بمقطع شديد الرمزية جاء تحت عنوان "الشمعة"، لأضع "نوّارة" بطلة الحكاية في بيئتها الأصلية/ الواقعية، أي في صلب حراك عاطفي وشعري احتوته وسط بيروت منذ عدة ليال وأضاءت فيه النساء من مختلف الأعمار والوافدات من كل المناطق اللبنانية شموعا لوأد عتمة الليل، ولإشعال الذاكرة النائمة، ولدعم "أمومي" شعائري المنحى، استمرارية الثورة اللبنانية بكل شعاراتها الموحدة للشعب اللبناني.

ثورة معنية أيضا بشعارات الشعوب العربية المجاورة برجائها وحلم يقظتها من سبات أظلم حاضرها ولا يزال يهدّد مستقبل أولادها.

يسرد النص في رواية "نوّارة" أنه حيث كان الإناء الذي حصد دموع نوّارة اشتعلت "شمعة لن تخمد شعلتها رفيعة كخط رند.. في شرود رند الناظر إلى نوّارة سعف عاتية، وتمر رطيب تشتهيه قناطر القصر الصيفية، تلك المُطلة على حدائق الذاكرة. الشمعة وحول شعلتها فلك مستنير رفيع كخط يدك يتوهج ضوءه حين يرانا ويزداد بريقه صعودا حتى السقف. ما أن نراه حتى يتوسّع وينحرف مودّعا محوره".

كذلك هو الحال على أرض الواقع اللبناني الخارج من حاضر بعيد عن ممارسة حصاد الدموع وفكرة ممارسة العتمة، اشتعلت الشموع، ولن تخمد شعلتها الرفيعة طالما رنا إليها مُشعلوها، جاعلين منها عرّابة بناء أكثر قناطر القصور الصيفية إشراقا، تلك المُطلة على حدائق الذاكرة الخارجة عن سباتها.

شكلت النساء حلقات جلوس على الأرض لأجل التعارف ولطرح ما حقّقته الانتفاضة اللبنانية ولنقاش تناول الخطوات التالية، فكان ذلك ترجمة بصرية لأحوال ظروف شمعة "نوّارة" بطلة الحكاية.

شمعة مشحونة بدفء غريب عُقدت أواصره على أرض الواقع بين غريبات لبنانيات في وطن واحد مُضيئات ومُضاءات بأمل "يتوهّج ضوءه حين يرانا ويزداد بريقه صعودا حتى السقف". ضوء انتشر في سائر أرجاء وطن عرف شتى أنواع التشظيات الاجتماعية والسياسية.

وقد عرفت مدن كثيرة كصيدا الجنوبية وطرابلس الشمالية وبعلبك البقاعية جلسات إضاءة شموع مُتشابهة قرّبت ما بين نساء وطن واحد شكّلن دورا أساسيا ومازلن في المشاركة في الاحتجاجات وإغلاق الطرق. وقادت حتى الآن العديد من النساء في مختلف المناطق اللبنانية، لاسيما بيروت وصيدا والنبطية، العديد من المظاهرات.

وفي سياق ليلة الشموع تلك أكدت إحدى المتظاهرات أن ليلة الشموع هي حراك من نوع آخر غير منفصل البتة عن مسار الثورة العام. وقالت سيدة أخرى من القادمات خصيصا من جبل لبنان للمشاركة "لم أستطع منع نفسي من البكاء والتأثر.. أرى الأمل مضيئا في عيون الناس للمرة الأولى".

المتجوّل/الباحث والعاشق للصور الخارجة عن طورها أو عن طور أصحابها من أطفال ونساء مختلفات في الأعمار والانتماءات الدينية في ساحة "نور الثورة"، كما جرى على تسمية ليلة الشموع تلك، سيشعر وكأنه يتجوّل في قلب لوحات فنية متحركة اتصل بها اتصالا عاطفيا ضاغطا.

سيعثر المتجوّل على وجوه النسوة والأولاد المضاءة بالشموع وقد تحوّلت إلى أفلاك نور خرجت عن صمتها. بعضها عبّر عن فرح مُجرّد بأجنحة خفّاقة، لاسيما وجوه الأطفال الذين حضروا مع أمهاتهم، وسيلحظ وجوها أخرى استحالت إلى منابع ضوئية كما في لوحات الفنان جورج دولاتور، أو وجوها التحفت بضوء الشموع كما في لوحات جوهانس فيرمير.

> ضوء الشموع انتشر في سائر أرجاء وطن عرف شتى أنواع التشظيات الاجتماعية والسياسية، لينير درب أمل شعب كامل

أما النساء المتقدّمات في السن الحاضرات في الساحات، فبخط ضوء الشموع المرتجف تحوّلت ملامح ذكرياتهنّ الشخصية إلى براعم وردية تضحك في العلن.

لكن ربما من أكثر ما يشدّ نظر المتجوّل، هو وجوه نساء جيل الحرب. فتحديقهنّ في لهب الشموع بدا وكأنه أخذهنّ إلى أحلام يقظة ركنت سنين طويلة في دواخلهنّ مُنتظرة توضّح معالم قشة كبريت تنتظر هي الأخرى اشتعالها على رأس شمعة بسيطة.

وجوه نطقت بشكل صارخ بما قاله يوما المفكر الفرنسي غاستون باشلار في أحد مؤلفاته "عزلتي حاضرة أصلا، فليحرقها من يحرقها".

ولعل احتراق هذه العزلة في ساحات الثورة يحمل بعدا إضافيا، لأنه احتراق يحدث ضمن الجماعة. أوله التهام الماضي، كوجبة باردة لم يعد يصلح تفويتها كلما استدعت الرغبة في ذلك، ثم الثورة على كل ما توقف أن يثور تحت ركام قهر لبناني الملامح.

ويلي ذلك، استيعاب الشعلة الأولى، وإن بدت ضئيلة، كالحلقة الأمتن في عقد التواصل مع أحلام الآخرين السائرين في مسيرة واحدة يُحرق فيها كل ما يجب أن يُحرق ويُضاء كل ما يستحق أن يُضاء على الصعيد الشخصي وعلى الصعيد الوطني في آن واحد.

كما "نوّارة" في الحكاية الخرافية/ الواقعية، نقف بصمت متأملين الشمعة الخارقة التي أطاحت بإناء احتضن طويلا دموعنا. لنسير بصمت من أمامها، "وحول شعلتها فلك مستنير.. يتوهّج ضوءه حين يرانا ويزداد بريقه صعودا حتى السقف. ما إن نراه حتى يتوسّع وينحرف مودّعا محوره".

نور الثورة يشع على لبنان المتحدة